

# الجهاد في الاسلام

الفريق عفيف البزري

## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم  
« والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا  
واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين . ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم  
من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق  
أولئك لهم عذاب اليم » .

صدق الله العظيم

(الشورى ٣٩-٤٢)

## الباب الاول

الاسلام ثورة انسانية

## الفصل الأول

### ظروف الدعوة الاسلامية

#### دار الاسلام

ان الاقطار التي قامت عليها دار الاسلام تضمنت تلك التي كانت مواطن امهات المدنيات الانسانية ، كما تاخمت شرق وغرب العالم القديم ، فامتدت من حدود الصين وقلب القارة الهندية إلى المحيط الاطلسي ، ومن الصحارى الافريقية إلى السهوب الاوربية . وانتشر الاسلام كذلك وتقدم في قلب افريقيا وفي ارجييلات المحيطين الهندي والهادي . فهذه المناطق تتوسط العالم القديم فكانت تنشط فيها شتى الهجرات الانسانية ومختلف المبادلات المادية ، وعلى الأخص منها المبادلات التجارية . وكان تراكم الثروات الناشىء عن هذا الوضع يقوم بشكل خاص في المناطق الدافئة الخصبة الملائمة لوسائل انسان العهود القديمة والواقعة على خطوط ومراكز النشاطات التجارية : في وادي النيل ، والهلال الخصيب ، وغربي فارس ، وجنوب شرقي الاناضول ، ووحدات الجزيرة العربية وشواطئها المطللة على الطرق البحرية للتجارة مع جنوب آسيا وشرقي افريقيا . أي باختصار يمكن القول ان مركز ثقل التراكم بكل انواعه المادية والروحية كان طوال الطور العبودي واقعا في المنطقة التي يطلق عليها اليوم اسم « الشرق الأوسط » :

★ هذه التسمية أطلقها المستعمرون على المشرق العربي وتركيا وايران للدلالة على جملة واحدة من المطامع الاستعمارية المترابطة .

« لقد انقضى منذ بداية التاريخ المكتوب حتى الآن ما لا يقل عن ستة آلاف عام ، وفي خلال نصف هذا العهد كان الشرق الأدنى مركز الشؤون البشرية التي وصل إلينا علمها . واذا ذكرنا هذا اللفظ المبهم في هذا الكتاب فاننا نقصد به جميع بلاد آسيا الجنوبية الغربية الممتدة جنوب روسيا والبحر الاسود ، وغرب الهند وافغانستان . وسنطلق هذا الاسم أيضاً - وان خرجنا على مقتضيات الدقة أكثر من ذي قبل - على مصر ، لأن هذه البلاد كانت شديدة الاتصال بذلك الجزء من العالم ، كما كانت مركزاً انتشرت منه الحضارة الشرقية . . . وقصارى القول ان الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل اخذوها عن بابل ومصر ، وان اليونان لم ينشئوا الحضارة انشاءً لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلل المتلاف . . . » ★

ولكن الواقع ، على ما في هذا المرجع التاريخي لديورانت من انصاف ، هو : ان الشرق الأدنى كان في أكثر من تسعة أعشار عهد التاريخ المكتوب (وليس فقط في خلال نصف هذا العهد كما جاء بالمرجع اعلاه) مركز التقدم المادي والروحي (الى جانب الهند والصين) في العالم القديم ، التقدم الذي لم يتعطل إلا عند ما توطدت اركان الرأسمالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر كنظام عالمي . أما ازدهار المدينتين : اليونانية والرومية ، فانه ما كان ليقوم الا على التقدم الأنف الذكر للشرق الأدنى .

وكان توزع أقطار دار الاسلام طوال العهود التي سبقت قيام هذه الدار في دول وامبراطوريات متناحرة على الدوام ، وذات شرائع وانظمة غير موحدة ، من اسباب عرقلة التقدم الانساني فيها واطالة الطور العبودي . ويضاف إلى هذا الأمر : ان مناطق المدينيات تلك كانت في كثير من الاحيان عرضة لهجمات مختلف الأقوام البربرية من شتى الجهات . فكانت لذلك كثيراً ما تقوم لفترات طويلة السدود والحواجز والعراقل بانواعها لتعطل حرية التنقل عبرها . وأدت هذه الظروف بطبيعة الحال الى تفاقم عزلة مختلف مناطق العالم القديم بعضها عن بعض ، وبشكل خاص ازدياد صعوبات الاتصال بمناطق المدينيات الأخرى في الهند والصين ، وتوقف التبادل معها

---

★ قصة الحضارة لول ديورانت ص ٩ - ١٠ من سومر .

بشئى انواعه المادية والروحية من وقت إلى آخر ، التبادل الذي ما كان على كل حال كثيفاً كفاية لتحقيق وحدة العالم القديم في جملة مجتمعات انسانية واحدة ، كما حدث في الطور الاسلامي ، وذلك بسبب العوائق الجغرافية الصعبة على وسائل تلك الحقب من التاريخ : المحيطات والجبال المانعة والصحارى الواسعة . ولم يقع ابدأ قبل الاسلام ان توحدت الاقطار التي نعينها هنا فخضعت لدولة واحدة أو شملها نظام واحد : فاقصى ما بلغته الامبراطوريات القديمة من الاتساع في المناطق التي ضمتها فيما بعد دار الاسلام كان في عهدي الامبراطوريتين اليونانية والرومية . فالأولى امتدت من اليونان إلى تخوم الهند بقيادة الاسكندر ، الا أنها ما لبثت أن انقسمت إلى ثلاث ممالك متناحرة ولما يتم قيامها بعد ، وذلك بانتهاء الحياة القصيرة لمؤسسها الذي مات في بابل عند عودته من الهند . أما الامبراطورية الرومية فانها لم تتعد ، على العموم ، عن أقطار البحر المتوسط ، كما بقيت في حروب أزلية مع جيرانها ، وخاصة منهم الامبراطورية الفارسية .

وعندما اتى الاسلام أقام تلك الدار الموحدة بدولة الخلافة خلال ما يقرب من قرنين ، ثم المستمرة بالوحدة بالشريعة الاسلامية (وان انقسمت إلى عدد من الممالك) طوال طور الحرفة الحرة (غير المقيدة بعلاقات العبودية) . فسقطت الجواحزين مختلف اجزاء العالم المعروف حينذاك ، ونشطت المبادلات المادية والروحية بين اقوام الأرض القديمة كافة ، وتوطدت التجارة العالمية الكثيفة ، وتوحد العالم القديم في جملة مجتمعات انسانية واحدة . يقول رئيس معهد دراسات الشرق الأوسط في جامعة هوبكنز في واشنطن الدكتور مجيد خدوري \* :

« ان تقسيمات دار الاسلام على أنواعها لا قيمة لها في الشرع الاسلامي الذي لا يعترف بتجزئة السلطة الاسلامية ولا بالتمييز بين المسلمين على أساس عرقي أو ثقافي . فالشرع لا يعترف الا بامة واحدة هي أمة محمد (صلعم) التي ينتمي إليها كل من يتخذ الاسلام ديناً دون أي اعتبار للحاكم الذي يطبق الشرع (شريطة ان يكون في دار الاسلام) . وكان المسلم ينتقل من أقليم إلى آخر بحرية دون إثارة موضوع الولاء بشكل من الاشكال . ذلك لأن جميع الحكام من المسلمين مكلفون بتنفيذ

\* الحرب والسلام في شرعة الاسلام ص ٢١٣ وما يليها .

شرع واحد واتباع دين واحد ، كل منهم في منطقته . ان إقدام بعض المسلمين امثال المؤرخ ابن خلدون (١٤٠٦م) والفيلسوف الصوفي ابن العربي (١٢٤٠م) والرحالة ابن جبیر (١٣١٧م) والرحالة ابن بطوطة (١٣٧٧م) على الاسفار والتنقل من مكان إلى آخر بحرية تامة يعتبر دليلاً ساطعاً على ان المناخ الثقافي كان عاملاً موحداً دائماً . . . ولم يفرق الشرع الاسلامي بين المناطق خارج الجزيرة العربية التي يسمح لأهل الكتاب بالعيش فيها باعتبارهم ذميين ، والتي يستطيع الحربيون (الاجانب) ان يتجولوا فيها إذا اعطوا الامان ، بل حتى المشركين لم يسلبوا حق الاقامة فيها شريطة ان يدفعوا الجزية . . . والامان هو عهد أمن وسلام يستحق الحربي (الاجنبي) بموجبه حماية السلطة الاسلامية له خلال وجوده في دار الاسلام . . . وطريقة منحه غاية في البساطة . . . فاية كلمة أو إشارة فيها معنى الموافقة كانت تعتبر منحاً للامان السذي يمكن ان يعطى من قبل أي مؤمن ، حراً كان أم عبداً . . . والقصد من الامان منفعة المسلمين وغير المسلمين بتمكينهم من انشاء علائق سلمية . . . » .

### شبه الجزيرة العربية :

تقع على مدار السرطان ، وعلى خط الصحارى الممتد من الصحراء الكبرى في غربي افريقيا إلى صحراء غوبي في أقصى الشرق الآسيوي . وهي أكبر اشباه جزر العالم ، فيبلغ أكبر اطوالها نحو ٢٥٠٠ كم ، وأكبر عرضها نحو ١٨٠٠ كم . وتشكل هضبة ضخمة تبدأ من الغرب بسهل ضيق على البحر الأحمر لا يتجاوز عرضه الخمسين كيلومتراً . ثم ترتفع فجأة بسلاسل جبال تمتد على طول البحر المذكور يبلغ ارتفاع قممها حول صنعاء ٣٨٠٠ متر ، وحول الطائف ٢٦٠٠ متر . وتنحدر من ثم ببطء نحو الشرق في أراضي جبلية وعرة تارة ، وصحارى رملية واسعة الارحاء تارة أخرى ، حتى الخليج العربي . وتقوم فيها على خليج عمان كتلة الجبل الأخضر التي تصل ذراها إلى ارتفاع يزيد على الثلاثة آلاف من الامتار . وتقع الاقسام المطلة منها على المحيط الهندي ، بما فيها اليمن ، تحت تأثير الامطار الموسمية . كما تنتشر الواحات هنا وهناك حيث توجد المياه فيها .

وكانت الجزيرة العربية دوماً عقدة طرق التجارة التي كانت تصل بين جنوبي آسيا وشرقي افريقيا وبين مختلف أقطار الشرق الأوسط الأخرى . إذ أنه حتى في أيامنا

هذه نرى ان هذه الجزيرة تحتل موقعاً متحكماً على أقصر واسهل الطرق الواصلة بين الشرق الأقصى ومنطقة المحيط الهندي وبين المناطق الغربية من الكرة الأرضية . ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد نجد الجزيرة العربية تقوم بدور موزع (سنترال) للتجارة العالمية بين المناطق الثلاث المار ذكرها قبل هنيهة . فكانت تقوم الشغور وطرق القوافل التالية ★ :

مسقط : ثغر أقطار آسيا الجنوبية بدءاً من الهند .

عدن : ثغر أفريقيا الشرقية بدءاً من الحبشة .

ايلة : ثغر مصر وأفريقيا الشمالية .

غزة : ثغر البحر الابيض المتوسط .

معان : ثغر سورية وآسيا الصغرى .

بابل : ثغر ما بين النهرين وفارس .

عكاظ : عقدة مختلف الطرق الآتية من الثغور الأتفة الذكر .

أما الطرق الرئيسية للقوافل في تلك العهود فكانت :

١ - الطريق المحاذي لسواحل بحري العرب واليمن والمار بالمراكز التجارية

التالية : مسقط - الخلوف - سلالة - شبام - مأرب - نجران - عكاظ .

٢ - الطريق اليمني المار من : عدن - مأرب - نجران - عكاظ .

٣ - الطريق الشمالي الغربي المار من : بصرى - معان - تبوك - العلا - مكة -

عكاظ ، أو : ايلة - تبوك - العلا - مكة - عكاظ ، أو غزة - معان - تبوك - العلا -

مكة - عكاظ .

٤ - الطريق الشمالي الشرقي المار من : بابل - دومة الجندل ★ - العلا - مكة -

عكاظ .

٥ - الطريق المتوسط الآتي من هجر في البحرين والمار من قلب نجد بالمراكز

التالية : يبرين - السليل - عكاظ ، أو : يبرين - السليل - نجران - مأرب - عدن .

وعند قيام الدعوة الإسلامية كان في الجزيرة العربية اثنا عشر سوقاً موزعة

---

★ الأطلس التاريخي . الاستاذ عدنان عطار .

★ الجوف حالياً وتقع في وادي سرحان .



بانتظام على أشهر السنة القمرية وعلى الطرق التجارية . وكان من أشهرها تلك التي كانت تقوم حول مكة المكرمة : سوق عكاظ بين نخلة والطائف ويقوم لمدة عشرين يوماً من شوال ، وسوق ذي المجاز خلف عرفة ، والمجنة قرب مكة ويقوم في أيام الحج . ثم أسواق : دومة الجندل في ربيع الأول ، وهجر في البحرين ويقوم في ربيع الآخر ، وعبان في جمادي الأول ، وعدن وصنعاء في رمضان ، وحضرموت في ذي القعدة ، وغيرها .

« ونحن نسمع عن التجارة بين العرب ومصر منذ عام ٢٧٤٣ ق.م ، وأكبر الظن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قدماً عن الاتجار مع مصر . وكانت الاسواق والمواسم السنوية تستدعي التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى تلك تارة أخرى . وكان يجتمع في سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات التجار والخطباء والشعراء . . . . » ★★

وقد تنافس الروم والفرس دوماً قبل الاسلام على التسلط على الجزيرة العربية ، وتركز تنافسهم على منطقة اليمن المتحكمة بمدخل البحر الأحمر من المحيط الهندي . « وفي عام ٢٥ قبل الميلاد غضب اغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة المتبادلة بين مصر والهند فسير جيشاً بقيادة غاليس للاستيلاء على مأرب . واضل الادلاء العرب الفيالق الرومية ، واهلكهم الحر والمرض ، وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها . . وهزم الاحباش ملوك الحميريين عام ٥٢٢ م ، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية ، وتحالف ملوك حمير مع الفرس وطردوا الاحباش ، وأقاموا في بلاد اليمن حكماً فارسياً (٥٧٥ م) انتهى بعد ستين عاماً بالدعوة الاسلامية . » ★ . وكانت آخر محاولة لاختضاع الجزيرة مجيء ابرهة لحصار مكة المكرمة في عام الفيل وفشله وارتداده عنها وهلاك جيشه . وكان اختيار مكة في هذه المرة كهدف للغزو بسبب ما بلغته هذه المدينة عشية الدعوة الاسلامية من مكانة كبيرة من الناحيتين الاقتصادية والسياسية . ففي تلك الأيام كانت مكة قد أصبحت من الناحية العملية عاصمة العرب : كانت حينذاك مكان لقياهم ومنتداهم (باسواقها) ، وموطن رموز

---

★★ وول ديورانت . قصة الحضارة . عصر الايمان ص ١٢ .

★ المرجع السابق ص ١٠ .

معتقداتهم على اختلافها ، موطن مجمع أهتهم الكعبة التي كان فيها ثلاثمائة وستون صنماً ★ ★ ★ فكانت لذلك تقابل البانثيون عند اليونان والرومان ★ ★ ★ .

وفي ذات الفصل الذي استشهدنا ببعض فقراته اعلاه ، الفقرات التي اعطينا صورة سيطرة الجزيرة العربية على طرق التجارة المتبادلة بين شطري العالم القديم ، شرقه وغربه ، عهداً متصله حتى الدعوة الاسلامية ، كتب ديورانت العبارة التالية المناقضة كلياً للصورة الأنفة الذكر : « . . ولد محمد (صلعم) في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدبة قليلة السكان ، أهله من قبائل البدو الرحل ، إذا جمعت ثروتهم كلها فانها لا تكاد تكفي انشاء كنيسة ايا صوفيا . . . » . . . وتساءل هنا عن المصادر التي أتت منها تلك الثروات التي مكنت الروم من بناء هذه الكنيسة الهائلة التكاليف (مع كل ما كان يحيط بها بطبيعة الحال من مظاهر البذخ والغنى الفاحش في مجتمع القسطنطينية حينذاك) . أمن الأفعول المتوحشة التي كانت تهيم على وجوهها في غابات وصقيع أوروبا تلك العهود ، أم من زيتون وسمك اليونان ، أو مما شابه هذا ؟! . .

من الواضح ان التراكم في اقتصاد الامبراطورية الرومية هو الذي سمح بقيام ذلك الترف ومكن من بناء الكنيسة الجميلة الأنفة الذكر . وديورانت يقول لنا ضمناً بالعبارات التي استشهدنا بها اعلاه ان العرب بموقعهم الجغرافي الممتاز كانوا من المساهمين الكبار ليس فقط في تكوين الاقتصاد المذكور للامبراطورية الرومية ، وانما ايضاً في تكوين الاقتصاد الآخر المنافس في ذلك العصر وهو اقتصاد الامبراطورية الفارسية . فلا يمكن اذن ان يكونوا على تلك الدرجة من الحرمان والفاقة والتخلف الاجتماعي ، التي وضعهم فيها تعسفا ديورانت ذاته .

ومما يؤسف له ان الكثيرين من العرب والمسلمين يقعون في هذا التناقض الذي وقع فيه ديورانت . ولعل وقوع هذا الأخير ما هو إلا انعكاس ووقوع الاولين عندما أخذ عنهم اخبار الدعوة الاسلامية فعلق بذهنه هذا الرأي الفاسد . وعلى العموم هنالك أسباب عديدة لتكوّن مثل هذا الرأي منها : محاولات التشهير بالعرب

★ ★ نور اليقين للخضري ص ٢٤٨ .

★ ★ ★ الترجمة الحرفية للكلمة اليونانية بانثيون هي مجمع الالهة : بان تعني كل أو مجمع ،

ثيوس آلهة .

وشتمهم والذس عليهم والاستخفاف بهم بنعتهم بالتخلف الروحي والمادي من قبل اعدائهم ، ومنها توهم من يأخذه « الحساس » لهم بدون تبصر بان قيمهم تعلو وتزداد عند اعطائهم صورة المعدمين المتخلفين الذي يتغلبون مع ذلك على سادة الدنيا في ذلك العصر بسبب تفوقهم العرقي « وأصالتهم » . . ومنها (وهو الاشد خطورة والأكثر فائدة لاعدائنا) اصرار من جمدوا عقيدتهم وحولوها إلى وثنية فأروا مع الدجالين انه من الأفضل والواقع في النفس أن يكون العربي متخلفاً معدماً فينتصر بقدرة الله عز وجل على اعدائه الأقواء الاغنياء المتقدمين . . . وكأن جدارة العربي وتقدمه المادي والروحي لا يكونان بقدرة الله وارادته عز وجل ليكون مؤهلاً أكثر من غيره لاصلاح الأرض بعد فسادها . . . ولقد أمر المسلمون بالآية التالية التي أنت مطلقة (غير مقيدة بالمناسبة التي انزلت من أجلها بعد موقعة بدر) فاصبحت قانوناً أساسياً في كل جهاد يخوضونه ، لاسيما منه ذلك الذي خاضوه ضد امبراطوريتي قيصر وكسرى ، لقد امروا أن يعدوا أسباب القوة المادية :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾

(الانفال ٦١)

فمن أين يُعِدُّ المعدم المتخلف القوة ورباط الخيل ضد هاتين الامبراطوريتين . . ان الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . ان شواهد التاريخ تنفي نفياً قاطعاً مزاعم تخلف العرب وفقدهم في عصر الدعوة الاسلامية . ففي موقعة حنين مثلاً كانت غنائم المسلمين : ٢٤٠٠٠ بعير و ٤٠٠٠٠ شاة و ٤٠٠٠٠ أوقية من الفضة ، عدا الثروات الأخرى من البقر وغيره التي أشير إليها في كتب السيرة ★ . وقد حصل ابوسفيان وحده على أربعين أوقية من الذهب من غنائم تلك الغزوة . وكان تعداد قبيلة هوازن صاحبة هذه الأموال عشرة آلاف نسمة : أربعة آلاف مقاتل وستة آلاف من الشيوخ والنساء والأطفال . فاذا قلنا ان هذه الأرقام تشكل وسطياً ألفي عائلة (وهو تقدير متواضع لأن العرب كانوا يسعون

★ نور اليقين للخضري ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ . والجهاد في سبيل الله للاستاذ محمد دروزة ص

٢٩٦ .

دوماً إلى اكثار النسل طلباً للقوة والمنعة) وجدنا ان العائلة تملك وسطياً اثني عشر بعبيراً وعشرين شاة وأوقيتين من الفضة وغيره . أما إذا أخذنا بعين الاعتبار ان في القبيلة المذكورة أغنياء وفقراء ومتوسطي الحال ، نجد بسهولة انه كان هنالك من يملك الآلاف من الابعار والشاء وغيره . وهوازن كانت من الأعراب وما كانت من العرب أهل المدن . ونعتقد أن منطقة ريفية بحجم موازن وبشرواتها لا تعد « معدمة » حتى في عصرنا الحالي وفي أكثر بلاد العالم تقدماً . ثم انه كان هناك من الأفراد الأغنياء في الجزيرة العربية من كان باستطاعته لوحده تجهيز جيش كالصحابي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك دون أن يتأثر وضعه الاجتماعي القائم على تعاطي الاعمال التجارية . ولا يقوم مثل هذا الأمر الا في سوق مزدهر ، وليس في مجتمع مملقنين متخلفين .

وكان اقتصاد الجزيرة أيام الدعوة الاسلامية متنوعاً بطبيعة الحال ، وما اقتصر فقط على التجارة ، وان در النشاط حينذاك في هذا القطاع أكبر الارباح في الاقتصاد المذكور . فكانت هناك الزراعة في اليمن وعمان والواحات ، وكانت تربية الماشية باعداد كبيرة عند العرب الرحل (كما رأينا مثال هذا اعلاه عند هوازن) . والترحل عند الاعراب ضرورة اقتصادية تملئها طبيعة جزيرتهم الصحراوية لانتجاع الكلال في مواسمه واماكنه ، وليس ظاهرة تخلف وعدم استقرار كما يتوهم البعض . ثم ان الحياة في مناخ الجزيرة الصحراوي تتطلب بساطة المظهر وخفة الحركة ، ليس فقط بين اعراب الخيم ، وانما أيضاً في المدن والواحات التي تتعاطى أعمال تنظيم القوافل وتكافح قسوة الطبيعة . وكانت هذه البساطة لاتعني الفقر والتخلف وانما ضرورة يقرضها المناخ . وما حرمت الجزيرة مع هذا من أقاليم غنية مريحة بطبيعتها كاليمينين (اليمن وعمان) حيث كانت تبرز مظاهر الاستقرار والترف :

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية . جنتان عن يمين وشمال .

كلوا من رزق ربكم واشكروا له . بنّدة طيبة ورب غفور ﴾

(سبا ١٥)

والخلاصة كانت للجزيرة العربية خواصها المادية والفكرية في عصر الدعوة الاسلامية ، وهي بمجموع هذه الخواص ما كانت تضاهي فقط الاقطار الأخرى في منطقتها ، بل كانت كافية لتستند إليها تلك الدعوة التي غيرت شكل العالم حينذاك .

إن أرض اليونان ما كانت تفوق أرض الجزيرة العربية : لا بغناها ولا بكثرة سكانها . ولكن أهلها مارسوا التجارة فاغتنوا بها وبنوا نتيجة لذلك حضارتهم الشهيرة . والعرب مارسوا التجارة من موقع جغرافي يفضل بكثير موقع اليونان ، كما مارسوها حقباً أطول بكثير من اليونان . وكانت لهم قبل الاسلام ممالك عرفت الغنى والترف مثل ممالك : تدمر والبتراء وحير وكندة والمناذرة والغساسنة . وفي أواخر طور الرق الذي انتهى بالاسلام ، أي في عهد الامبراطورية الرومية ، برز العرب كشعب متميز له نفوذ وتأثير حاسم في كل نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في منطقة الشرق الأوسط . وكانت الامبراطورية التدمرية على هذا الأساس مؤهلة للحلول مكان الامبراطورية الرومية لو انها مع ما كان تملك من مؤهلات مادية كبيرة تصدت لانجاز مهمة تاريخية تغير من واقع العالم القديم ، كما فعل الاسلام عندما انجز مهمة القضاء على الطور العبودي . وكذلك حقق العرب انتصاراً كبيراً على الامبراطورية الفارسية في موقعة ذي قار . وعلى العموم اتجهت احداث التاريخ في تلك العهود نحو ظرف قيام العرب بمهمة انهاء الطور العبودي العالمي وبناء طور الحرفة الحرة والتجارة العالمية الكثيفة .

وقد انتشرت قبل الاسلام المدن التجارية العربية الجمهورية ، كمدن اليونان التجارية الجمهورية . وكانت مكة المثال الكامل لتلك المدن . فكانت فيها الندوة للتشاور في الأمور العامة ، ووزعت فيها مختلف المهام بين أوساطها القائدة : كانت سدانة الكعبة مثلاً لبني عبد الدار ، والسقاية والرفادة (أو تنظيم إقامة الضيوف والوافدين إلى مكة في المواسم) لبني هاشم ، واللواء (أمانة الجيش وتنظيم القوافل وحمايتها) لبني أمية ، فابوسفیان مثلاً قاد القافلة الشهيرة التي وقعت موقعة بدر الكبرى بسببها ، كما قاد المشركين في وقعة أحد . وما كان هذا التوزيع ثابتاً بل كان يتغير حسب الظروف . وفي كل الأحوال ، كان المسؤولون في مكة يجتمعون في الندوة (التي هي شكل من أشكال البرلمان) لبحث كل أمر طارئ : خطر يهدد مدينتهم ، أو موسم أو غيره ، لبحث الأمر وإقرار خطة العمل وتوزيع المهام . ومكان الندوة كان في دار من يتولى زعامتهم كعبد المطلب مثلاً .

الجاهلية :

قلنا إذن أن أحوال العرب المادية كانت في عصر الدعوة الاسلامية جيدة وغير

مقصرة في المجموع عن الأحوال المادية لمنطقة الشرق الأوسط . بل ان ما كان يقع في تلك الأيام من اضطرابات وعدم استقرار وحروب حول الجزيرة العربية ، لاسيما منها الحروب الأزلية الرومية - الفارسية ، والفتن الدموية بسبب الخلافات الدينية والفكرية في كل من المجتمعين الرومي والفارسي ، كانت له آثاره السلبية لا على الروم والفرس فقط ، وانما على العرب ايضاً أصحاب التجارة القائمة بين مشرق العالم القديم ومغربه ، فقامت فيهم ونمت أكثر من غيرهم أماني الخلاص من تلك الأوضاع المتدهورة الفاسدة التي كانت تعرقل وتعطل السير الصحيح لاعمالهم التجارية تلك . وبما كان يزيد في الأوضاع سوءاً في الجزيرة ويشدد من أماني الخلاص المذكورة اشتداد الأزمات في علاقات الجماعات العربية بعضها ببعض وتفاقم العصبية الضيقة الهدامة في تلك الجماعات ، العصبية التي نجد وصفها البليغ في قول قريظ بن أنيف :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا  
وفي قول الآخر :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد  
ثم كانت الحروب الأزلية الداخلية بين القبائل العربية وبين الممالك ، وانقسام العرب في الولاء بين الشرق والغرب (بين الفرس والروم) ، وغزوات الاحباش والفرس والروم لبلادهم . قامت مثلاً الحروب القبلية الدامية بدون انقطاع طوال القرن الذي سبق الدعوة الاسلامية : اندلعت حرب البسوس عام ٤٩٠ م ودامت أربعين سنة ، ثم اشتعلت حرب داحس والغبراء طوال النصف الأخير من القرن السادس الميلادي . وفي تلك الأثناء لم تنقطع الحروب بين الغساسنة والمناذرة وكان منها يوم حليلة حيث قاد الشاعر ليبيد جيش الغساسنة . واشتعلت حرب الفجار الأولى والثانية حول مكة قبيل بعث الرسول (صلعم) . ثم كانت حملات الاحباش والروم والفرس على الجزيرة العربية ، وقد أشرنا إلى بعضها أعلاه .

وكانت الوثنية تنتشر بين العرب وكان إلى جانبها بعض الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية والحنيفية والصابئة : كانت المسيحية في نجران ، وفي عشيرة تغلب ، وفي بعض بطون طيء . وكان المناذرة مسيحيين على المذهب النسطوري ، والغساسنة على المذهب يعقوبي . وانتشرت اليهودية في يثرب وفدك وتيها وخيبر

وبعض مناطق اليمن . وعبد الكواكب أهل حران فيما بين النهرين وهم الصابئة . وكان للوثنيين العرب أصنام وأوثان . فالآلهة الصنمية كانت بتماثيل « كهبل » الذي صنع من العقيق على هيئة انسان وكان من أعظم آهتهم . أما الأوثان فكانت معبودات تتمثل برموز كشجرة « العزى » مثلاً في وادي نخلة ، أو كصخرة « اللات » المربعة في الطائف وكان عليها سدنة من ثقيف . وكانت عرب الجاهلية تحج إلى آهتها ، لاسيما تلك التي كانت في الكعبة ، في مواسم معينة ، فتقدم لها القرابين وتستقسم عندها بالازلام . يقول النابغة :

فلا لعسر الذي مسحت كعبته وما هريق على الانصاب من جسد  
واستقسم اسرؤ القيس لدى صنم يقال له « ذوالخلصة » بثلاثة قداح هي :  
الأمر والناهي والمتر بص . وهذه حكاية مشهورة في كتب الأدب انتهت ثلاث مرات  
متواليات إلى الاخفاق وقال له : . . . لو كان أبوك قتل ما عقتني . . . والاستقسام هو  
أن يقوم المستقسم عند صنم أو وثن بتعيين عدد من الاحتمالات على عيدان تسمى  
قداحاً أو ازلاماً ، كل قدح باحتمال ، ثم يسحب منها واحداً فتكون قسمته (يكون  
نصيبه) ما تعين على هذا العود المسحوب من احتمال . وقد حرم الاسلام هذه  
« اللعبة » السخيفة الضارة ، التي تقيد امور الانسان ومضيره « بدولاب حظ » ،  
بالآيتين التاليتين :

﴿ . . . وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق . . . ﴾  
﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام  
رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾

(المائدة ٤ ، ٩٣)

وتقول الرواية أن قبيلة خزاعة اليسنية هي التي أدخلت الوثنية إلى مكة عندما  
نزحت إليها من اليمن . وتستند هذه الرواية إلى أن معظم الاصنام والاوثان تنسب  
إلى عرب اليمن في موطنهم القديم أو مواطنهم الجديدة التي نزحوا إليها في الشمال .  
والواقع أن الوثنية كانت الوجه الرئيسي للحياة الروحية السائدة في الطور العبودي .  
وكانت مقاومتها في كثير من الحالات (التي منها على الأخص دعوات التوحيد) السند  
الروحي للتمرد على علاقات العبودية التي ما كان العبيد وحدهم ضحاياها ، وانما  
كل من هو أضعف تجاه من هو أقوى في كل مجتمع من تلك المجتمعات .

وكانت الهجرات الجماعية (وما زالت الهجرة حتى أيامنا هذه وما دام هنالك قهر واضطهاد في الدنيا) نقول كانت الهجرات الجماعية إلى أرض أخرى من أشد الوسائل نجاعة للخلاص من القهر العبودي \* وأكثرها انتشاراً في تلك الأيام التي كان يستحيل فيها الهرب الافرادي لقلّة وسائل الانسان . وخروج ابراهيم عليه السلام من بلده الكلداني أور مع اهله وانصاره إلى أرض الشام مشال من أمثلة النزوح هرباً من الاضطهاد ، وفي ذات الوقت رمز للعديد من الهجرات الأخرى المشابهة بسبب بقائه في ذاكرة الأجيال طوال قرون لاهميته وضخامته . وقد أشار القرآن إلى هذا الحدث بالآيتين التاليتين :

﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين . ونجيناها ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾

(الانبيا، ٧١ و٧٢)

وهاجر ابراهيم عليه السلام مرة أخرى إلى مكة . ومن البديهي ان لا تكون هذه الهجرة هي الأولى ولا الأخيرة إلى الواحات العربية التي كانت ملاذاً جيداً لكل جماعة مضطهدة في ذلك الطور العبودي . وبصورة عامة كانت هنالك أسباب عديدة لحركة البشر وتقلهم في هذا الطور الذي ما كان يتصف بالاستقرار . ويمكن تقسيم هذه الأسباب الى فئتين :

الأولى - الدافعة إلى مراكز المدنية المريحة في الهلال الخصيب ووادي النيل وغيرها ، وذلك طلباً للرزق والاستقرار بالحلول مكان السكان الاصليين الضعفاء بعد طردهم أو استرقاقهم .

الثانية - الدافعة من مراكز المدنية المريحة إلى المعازل والمناطق الصعبة هرباً من الاضطهاد ، أولتعدر العيش في المناطق المريحة لازحامها وقوة اصحابها المتمتعين بخيراتها ، كما كان عليه حال ابراهيم عليه السلام في الشام عندما اضطر إلى الهجرة مرة أخرى إلى مصر ثم إلى مكة .

---

★ ﴿ يا عبادي الذين آمنوا أن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾

(المنكوت ٥٦)



ويتراكم الهجرات الأنفة الذكر : من الهلال الخصيب ومن وادي النيل ومن اليمن ومن غيرها ، إلى المناطق الشمالية من الجزيرة العربية ، وخاصة منها الحجاز ، تكونت ما يسمونه العرب المستعربة (على البنية البشرية القديمة التي تفاعلت مع الافواج المتتالية من المهاجرين) : تقول الرواية مثلاً أن اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام صاهر قبيلة جرهم من العرب البائدة . وقد حمل أولئك الهاربون من العبودية معتقدات التوحيد (التي منها الحنيفية) الى تلك المجتمعات الناشئة . وبمرور الزمن اختلطت هذه المعتقدات بالوثنيات المحلية فنشأت عقيدة ثنائية في المجتمعات العربية المستنيرة كمجتمع مكة مثلاً ، نشأت عقيدة وثنية توحيدية :

﴿ . . وما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى . . ﴾

(الزمر ٣)

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾

(العنكبوت ٦١)

ويطيب لبعضهم أن ينسب إلى العرب سطحية معتقداتهم الوثنية فيزعم « بأنها ما كانت تعدو مراسيم وعادات لا تؤخذ بكثير من الجد ولا يصاحبها شعور عميق » . أي أنهم في النتيجة كانوا بحسب هذا الزعم محرومين من الحياة الروحية العادية التي يتمتع بها الانسان العادي . ويستند اصحاب هذا الرأي على حوادث منعزلة لا يصح أخذها بجدية ، مثل قصة امرئ القيس المتور بابيه عندما ضرب وجه الصنم بقداحه المكسرة ، ومثل أكل بني حنيفة صنمهم المصنوع من التمر عندما أصابهم الجوع . فالمثال الأول عادي يمكن وقوعه في أي وسط متعصب لدينه من قبل فرد مندفع قد اعماه الغيظ من صعوبة اعترضت اندفاعه . أما المثال الآخر فان كتب الأدب تروي وقوعه من قبل فرد أو فرد معدودين أكلوا تمثالاً من تمر محدود الحجم ، ولا يمكن أن يكون الأمر إلا بهذه الصورة . إلا أن حفظ الأوساط العربية الجاهلية لهذه القصة وروايتها يدل على غرابتها في تلك الأوساط وشذوذها عن مألوف ما كانت تتمتع به الآلهة من احترام .

ان العقائد الدينية تناسبت دوماً مع الطور الانساني القائم . فالوثنية كانت ترتبط بطور العبودية ، وكانت آلهتها تجريداً لسادة العبيد وكان هؤلاء السادة تجسيداً

لها . ولقد كان بعض السادة آلهة . وكانت في المحصلة عقائد الوثنية مندمجة بمصالح طبقات السادة ومصالح أعوانهم وخدمهم المخلصين ، فلا يمكن فصل هذه المصالح عن تلك العقائد . وعندما نقول مصالح الطبقة السائدة فاننا نعني النظام القائم برمته ، نعني حياة تلك الطبقة وديمومتها من ماضيها بآبائها إلى مستقبلها بآبائنا . وكان من الطبيعي سريان العقائد المذكورة إلى سواد الناس في الأنظمة العبودية بحيث كانت قائمة بدافع الأمل والخوف : الأمل برضاء القوي « الخفية » والخوف من انتقامها . وعندما ننظر إلى قريش مثلاً بكعبتها وما كان فيها من أصنام بعدد أيام السنة ، وننظر إلى أسواقها ومواسمها التي كانت تقوم على مدى قرون فاننا لانجد بطبيعة الحال إلا أهل بلد يأخذون أمر أصنامهم بكل جدية ، فمن الصعب أن نتصور قريشاً تقوم « بتمثيلية سطحية طوال كل تلك القرون ليصدقها كل أولئك العرب الذين كانوا يهرعون إلى تلك الحجج والمواسم . ولننعم النظر في الجواب الآتي لعثمان بن طلحة العبدري سادن الكعبة الذي دفع النبي (صلعم) وهو يدخلها فقال له عليه السلام :

﴿ لا تفعل يا عثمان ، فكأنك بمفتاحها بيدي أضعه حيث

شئت ﴾

فأجابه عثمان : « لقد ذلت يومئذ قريش وقلت » . فقال له صلى الله عليه وسلم :

﴿ بل كثرت وعزت ﴾

فالعبدري ربط بعفويته مكانة قريش ببقاء أوثانها في الكعبة . أما الرسول فقد رأى بثاقب بصره ان مكانة قريش تزداد علواً وشموخاً بالاسلام . ولا أدل على تمسك العرب بوثنيتهم من مقاومتهم الشديدة للدعوة الاسلامية ، فقد شنوا حروباً دامية للحيلولة دون انتشارها . ولا أدل أيضاً على عمق إيمانهم بالاسلام بعد أن دخلوا فيه من توضيحتهم بارواحهم وأموالهم في سبيل اعلاء كلمته .

ان الفكر اليوناني على تقدمه الكبير في مجالي النظرية والتطبيق كان فكراً عبودياً تختص به طبقة السادة ويقوم على الاستهلاك الوحشي لقوى الرقيق والمستضعفين ، وعلى ما كان يجلبه القرصان اليوناني من غنائم في غاراته ونهبه لشروات الاقوام الاخرى ، وما تدفق على الحواضر اليونانية من غنائم الحروب . ونجد اليوم مثلاً على هذا في الولايات المتحدة الاميركية التي لا ينكر احد تقدمها الكبير في كل

المجالات الفكرية ، كما لا ينكر أحد أن هذا التقدم يقوم على القيم المادية التي تنهال على هذا البلد (على خزائن احتكارييه) من الغنائم التي يحققها نظامه الامبريالي العالمي على حساب كل المهورين في العالم ، فهو اذن تقدم الامبريالية العالمية المتعددة الأطراف الموحدة بقيادة هذا البلد . فالتقدم الفكري (مع التقدم المادي المرافق له) ليس شرطاً كافياً لدفع صاحبه إلى تحقيق الارتفاع الانساني إلى الطور الاعلى ، بل اننا نجد أيضاً وسيلة ادامة التخلف : ان اميركا مثلاً (ككل مثيلاتها في التاريخ الانساني) تستخدم كل ما حققه الانسان من تقدم فكري ومادي لقهـر الشعوب وتمزيقها ، كما توجه قسماً هاماً من بحوثها للكشف عن أفضل السبل للنكاية بالانسان وتوطيد ركائز التخلف .

واقـتصاد الجزيرة العربية في عصر الدعوة الاسلامية ما كان يعتمد بشكل اساسي على اليد العاملة العبودية ، فلم يكن لذلك الرقيق يشكل وجوداً محسوساً في المجتمعات هناك . وتألفت المجتمعات العربية من قرابات وعصبيات في المدن وفي القبائل الرحل ، وكانت ، كما اشرنا إليه اعلاه ، لا تنحصر في جزيرتها فقط ، وانما امتدت وتفرعت في الهلال الخصيب . وما توقفت أبداً العلاقات المختلفة بين عرب الجزيرة وعرب الهلال الخصيب ، كما لم تنقطع بين هؤلاء وأولئك وشائج القرى ودواعي العصبية ، فالعرب كانوا يشكلون قوماً واحداً متميزاً ، كما سبق وقلنا ، وان فرقتهم خلاقات الجاهلية ، وظروف تفسخ الطور العبودي : ان ما يسمى بالهجرات السامية التي انطلقت من الجزيرة العربية نحو مناطق الهلال الخصيب ، مع ما أشرنا إليه اعلاه من تيارات معاكسة لجماعات انسانية اتت من مناطق المدنية في الهلال الخصيب إلى الواحات العربية هرباً من قهر الانظمة العبودية ، كل هذا (مع النشاطات الانسانية الأخرى التي كانت تقوم بين تلك المناطق) كان يشكل الحركة العامة عبر التاريخ للانسان السامي التي منها حركة تفرع مجتمعات الجزيرة العربية في الهلال الخصيب . ثم ان العرب بمجموعهم كانوا على اطلاع ووعي تام لظروف عصرهم بسبب قراباتهم في مناطق التأثير العالمي حينذاك في الهلال الخصيب ، وبسبب نشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية . وتزدحم اخبار الجاهلية باخبار العلاقات التي كانت قائمة بين مختلف عشائر العرب وممالكهم في الجزيرة والهلال : وفود الشعراء كعمر بن كلثوم ولبابة ولبيد وحسان وغيرهم على المناذرة والغساسنة في كل موسم .

وحكاية أمرىء القيس ورحلته إلى بلاد الروم طلباً للمساعدة ، وحرب ذي قار التي قامت بين حلف عربي تزعمته قبيلة بني بكر لمساندة ملك المناذرة أبو قابوس النعمان بن المنذر وبين الفرس قبيل قيام الدعوة الإسلامية \* ، وكان النصر فيها للعرب . وقد ورد في القرآن ذكر الرحلات التجارية لقريش إلى الشام واليمن :

﴿ لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف . ﴾

كل هذا يدل على متابعة العرب عن كثب لاحداث ذلك العصر ، ان لم يشاركوا مشاركة فعالة فيها . فما كانوا اذن من الأقسام المتخلفة عن امور عصرها ، كذلك التي كانت تعيش على « هامش » التاريخ في ثلوج وغابات أوروبا أو في الصحارى المغولية . ونؤكد مرة أخرى انهم كانوا من كل النواحي المادية والفكرية في سوية تؤهلهم لحمل العبء العظيم بانجاز ثورة تغير الطور العبودي والانتقال بالانسانية إلى الطور الأعلى : طور الحرية والتجارة العالمية النشطة .

ما كان لدى العرب تأملات فلاسفة اليونان وتعمقهم في مسائل ما وراء الطبيعة (التي بقيت مع ذلك بدون جواب شاف حتى يومنا هذا) نقول ما كان لديهم ذلك التعمق وانما ادركوا جيداً وجوب تغيير النظام العالمي المنحل المتفسخ آنذاك . وان رقي لغتهم حتى بلغت في ذلك العصر مستوى مكنها فيما بعد من استيعاب معاني وأفكار كل الحضارات السابقة واللاحقة والتعبير عنها ببسر وطلاقة وبلاغة ليدل بوضوح ما بعده ووضوح على ان السوية الفكرية لاصحاب هذه اللغة في ذلك العصر الجاهلي كانت تناسب الدور العظيم الذي اضطلعوا به : ان لغة المجتمع الجاهلي بقيت بجوهرها حتى أيامنا هذه بدون تغيير ، ومع ذلك فانها لا تقصر عن استيعاب افكار مدنية عصرنا الحالي والتعبير عنه في كل مجالاتها وتفرعاتها . وهذا ما يبرهن بشكل حاسم على نضج تجارب أولئك الجاهليين في الحياة ( عبر طريق ممارساتهم الخاصة بهم ، وبلوغهم في تلك الأيام درجة متقدمة في نشوء ورقي مجتمعاتهم) . يقول الجاحظ : « وذكر الله تعالى لنبيه حال قريش من بلاغة المنطق ورجاحة الاحلام وصحة العقول . وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر ، ومن بلاغة الالسة واللدد عند الخصومة فقال :

---

\* في قيل ان هذه الواقعة كانت بين بدر وأحد .

﴿ إذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ﴾

(الاحزاب ١٩)

« وتندربه قوما لدا ﴾

(مریم ٩٨)

﴿ ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام ﴾

(البقرة ٢٠٤)

﴿ آهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الاجدلا بل هم قوم خصمون ﴾

(الزخرف ٥٨)

ثم ذكر خلاية السنهم واستمالتهم الاسماع بحسن منطقتهم فقال :  
﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾

(المتفقون ٤)

﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ﴾  
﴿ و إذا تولى سمى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث  
والنسل والله لا يحب الفساد ﴾

(البقرة ٢٠٤ و ٢٠٥)

انتهى قول الجاحظ . \*

قلنا ان العرب في عصر الدعوة كانوا يدركون وجوب التغيير في علاقات  
المجتمعات الانسانية العبودية المنحلة الفاسدة \* \* . وكانوا يتوقعون التغيير بقيام  
« أمر من السماء » . يقول قس بن ساعدة بكلمته الشهيرة : « أيها الناس اسمعوا  
وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . ان في السماء

---

\* البيان والتبيين . تحقيق السندوي ج ١ ص ٢٦ .

\* \* قلنا ان الجزيرة العربية واحاتها كانت ملجأ للهاربين من اضطهاد الانظمة العبودية ،  
أي انها كانت بلغتنا الحالية موقلاً للاحرار اعداء تلك الانظمة . فلا عجب ان نشأت وترعرعت  
فيها افكار التحرر من تلك الانظمة ، وان اصبحت محط الانظار والامال بالخلاص في منطقة البحر  
الأبيض المتوسط .

لخبراً ، وان في الأرض لعبراً . . . » . وورد في القرآن تهديد يهود خيبر لاعدائهم  
غطفان بقرب الدعوة الاسلامية ، وذلك قبل قيامها :  
﴿ . . . وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا قلما  
جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾

(البقرة ٨٩)

وطمع البعض في ظروف انتظار التغيير ان يكون المختار للدعوة كأمية بن ابي  
الصلت الثقفي . . . » . وكان قد نظر كتب الاوائل ، وتعبد لرب ابراهيم واسماعيل ،  
وحرم الخمر ، وشك في الأوثان ، والتمس الدين ، وطمع في النبوة . ولما بعث النبي  
حسده ، وكان يجرض قريشاً بعد بدر ، ويرثي قتلاها من المشركين . . . \* . .

فساد الطور العبودي :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً  
وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم  
خبير ﴾

(الحجرات ١٣)

لنقل ان الحاضر هو استمرار الماضي وتطوره ، وإلا فان ما يقع في كل زمن (ان  
لم يكن الأمر كذلك) يجيء من العدم مما يخالف سنن الوجود . فلو نظرنا اليوم إلى  
الانسانية فاننا نجدها تقوم في مجتمعات تتفاعل فيما بين بعضها والبعض الآخر ،  
فضلاً عن تفاعلها مع وسطها الطبيعي العام بتفاعلات وظيفية : ان في انتاج كل  
مجتمع مثلاً ما يسد حاجة مجتمعات أخرى ، ونجد بعض المجتمعات تنتج بعض  
حاجات معظم الانسانية ، كمجتمعات الخليج العربي التي تنتج النفط . وهناك ما  
لافسادة من حصره من علاقات أخرى بين المجتمعات الانسانية ، ولكننا نرى في  
النتيجة ان ما يحدث في كل مجتمع من المجتمعات يثير اهتمام المجتمعات الأخرى ان  
لم يحدث فيها أثراً مادياً فالمجتمعات اذن تقوم في وجود مادي كلي متميز موحد نطلق عليه اسم  
جملة المجتمعات الانسانية . ولا يمكن أن يكون هذا الوجود المادي الحي قائماً

\* حاشية ص ٣٢ في المرجع السابق للجاحظ .

بدون تاريخ وأسباب ، ولا بد من أن يكون قد خضع كغيره من الكائنات المادية لعمليات النشوء والارتقاء ، فبدأ من بدايات بسيطة ثم تقدم عبر أطوار مناسبة متتالية ، هي بالضبط الأطوار التي تشبه تلك التي يمر بها نمو أي كائن حي : بدأ بالمشاعات البدائية وتقدم إلى أن وصل إلى ما نراه حالياً من فساد طوره الرأسمالي الذي قطع به شوطاً كبيراً في مرحلة انتقال إلى الطور الأعلى .

أتى الاسلام في المرحلة التي فسد فيها الطور العبودي الذي كانت فيه الجملة الانسانية موزعة على مناطق مدنيات ثلاث ما كان يتم التفاعل فيما بينها بالشكل الذي نشاهده فيها اليوم ، وذلك بسبب الصعوبات الجغرافية المعترضة فيما بينها . وضعف وسائل الانسان حينذاك ، وببطء تطور الحاجات المتقابلة للواحدة منها إلى الآخرين . وكانت هذه المناطق تشكل ما نسميه اليوم بالعالم القديم ، وهي :

١ - منطقة الصين : تشمل كل ما يقع اليوم تحت اسم الشرق الأقصى وغربي المحيط الهادي .

٢ - منطقة الهند : تشمل جنوب آسيا ، وجزر وارخبيلات المحيط الهندي وسواحل افريقيا على هذا المحيط .

٣ - منطقة البحر الأبيض المتوسط : تشمل كل ما يقع اليوم تحت اسم الشرقيين الأدنى والأوسط ، وبقية أقطار البحر الأبيض المتوسط ، وكل ما بقي من العالم القديم في آسيا وأوربا وافريقيا .

ومما زاد في عزلة المناطق السابقة بعضها عن بعض قبل قيام الدعوة الاسلامية ، انقسام المنطقة الوسيطة للعالم القديم ، المنطقة المحددة بدار الاسلام ، إلى ممالك وامبراطوريات متناحرة على الدوام ، لاسيما منها امبراطوريتا الفرس والروم اللتان كانتا في حروب أزلية ، وقد أشرنا إلى هذا قبلاً .

وظهر التمرد على علاقات العبودية منذ عهود موغلة في القدم ، وذلك بأشكال عديدة منها مثلاً ما أشرنا إليه اعلاه وهو الفرار الجماعي للمضطهدين : العبيد والمستضعفين وكل من لا يرضى بالظلم ، فرارهم إلى المناطق الصعبة كالجبال والواحات في أعماق الصحارى ، كحركة موسى عليه السلام ونزوحه عن مصر بالمضطهدين المنظمين بكتائب (اسباط) ، ومحاوله سبارتاكوس الخروج من ايطاليا بمضطهدي روما إلى قطر بعيد . وفي أزمنة أزدهار العبودية وصعودها المادي والفكري

نجد ان سلطات المجتمعات المتقدمة هي التي كانت تحول دون الأقوياء في المجتمع من أن يتجاوزوا حدود الشرائع القائمة ويضطهدوا الضعفاء . فنقرأ مثلاً في قانون حمورابي \* : « في ذلك الوقت ناداني انوبيل ، أنا حمورابي ، الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي انشر العدل في العالم ، وأقضي على الاشرار الأثمين ، وامنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء ، وانشر النور في الأرض ، وأرعى مصالح الناس . . . » . أما في أيام الأزمات والانحطاط فنجد (كما هو الحال في كل زمان) من يكفر بالآلهة وبالناس . فنقرأ مثلاً في ملحمة جلجميش \* : « ان قلب الاله بعيد . . ان الناس يمجدون عمل الرجل العظيم الذي يبرع في القتل ، ومحقرون الفقير الذي لم يرتكب ذنباً ، ويررون أعمال الرجل الأثم ، ويسلطون القوى ليغتال طعام الضعيف ، ويهلكون الرجل الضعيف ، ويطرده الرجل الغني . . » . وتقول هذه القصيدة في الكهنة : « انهم لم ينقطعوا عن عرض الأكاذيب والاضليل يقولون باللفظ الشريف ما كان في صالح الرجل الغني ، وهم يسيئون معاملة الضعيف كأنه لص . . » . ولكن دعوات التوحيد هي التي كانت تشكل أكثر الأخطار جدية على علاقات العبودية ، إذ كانت تضرب في المركز الأول والأساسي لذلك النظام بمبادئها بالتوحيد وبمهاجرتها الوثنية بتساوي الناس تجاه الخالق الذي لا يشبه أحد : يمكن عودة الوثنية بعد التوحيد بتشبيه الاله بصورة أورمز (بصنم أووثن) ، ثم بعدد من الصور المختلفة التي تتطور إلى عدد من الآلهة ، ثم يبشرون صراحة أو ضمناً الخ . . يضاف إلى هذا أن تصوير الاله يتنافى مع وحدانيته في لانهائيته وفي احاطته بكل شيء . وقد أدرك دعاة التوحيد من قديم الزمن هذا الأمر فمنعوه . فاخناتون مثلاً ، الذي نادى بالتوحيد « . . حرم على الفنانين ان يرسموا صوراً لأتون ، لأن الاله الحق في اعتقاده لا صورة له . . » \* . فتحريم تشبيه الاله اذن والانتقاص من أمره :

﴿ . . . اليه يرجع الأمر كله . . ﴾

(هود ١٢٣)

\* قصة الحضارة . الكتاب الأول ص ١٩٠ .

\* المرجع السابق ص ٢٥٩ و ٢٦٠ .

\* المرجع السابق ص ١٧٦ .



﴿ . . . بل لله الأمر جميعاً . . . ﴾

(الرعد ٣٣)

﴿ . . . لله الأمر من قبل ومن بعد . . . ﴾

(الروم ٤)

نقول ان تحريم تصوير الاله والانتقاص من امره لا يحرم فقط الوهية الافراد ، كما كان يحدث ويعم في طور العبودية ، بل يحرم أيضاً الاستبداد والتأله الضمني بكل أشكاله لفرد أو لفئة على فئات أخرى من الناس .

وتوالت دعوات التوحيد في الطور العبودي ، وقد احصى الاسلام خمسة وعشرين نبياً ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، وقال أن هنالك كثيرين غيرهم لم يرد لهم ذكر بعثوا في مختلف العصور والأمم قبل الاسلام :

﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾

(النساء ١٦٣ و١٦٤)

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك . . . ﴾

(غافر ٧٨)

وحدث بتوالي دعوات التوحيد تراكم فكري ومادي ضخم ضد الوثنية وضد علاقات العبودية بصورة عامة ، ففقد ذلك النظام في النتيجة هيئته ، واستبسل الناس في مقاومته حتى ان المؤمنين المسيحيين كانوا يذهبون راضين إلى العذاب والتمزيق بمخالب وانياب الوحوش في حلبات التسلية في روما وفي حواضر الوثنية الأخرى . إلا أن كلا من تلك الدعوات التي زعزعت مرتكزات العبودية بتواترها تجمدت وسقطت بأيدي الجالين والانتهازيين الذين وضعوها في خدمة اعدائها سادة ذلك النظام الذي قامت لمحاربته . فاليهودية مثلاً كانت في عهد السيد المسيح بالصورة التالية التي نجدها في انجيل القديس مرقس \* : « . . . فدخل الهيكل

\* الفصل الحادي عشر ١٥ و١٧

وجعل يخرج الذين يبيعون ويشتررون في الهيكل ، وقلب مواثد الصيارفة وكراسي باعة الحمام . . . وكان يعلمهم قائلاً : أليس مكتوباً أن بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الأمم واتم جعلتموه مغارة لصصوص . . . » . وكان للزردشتية « سبعة مظاهر أو سبع صفات هي : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود » . وقد فسر اتباعها هذه الصفات على أنها أشخاص (سموهم أميشا اسبتنا أو القديسين الخالدين) الذين خلقوا العالم يسيطرون عليه بأشراف « أهورا مزدا » وارشاده . وبذلك حدث في هذا الدين ما حدث في المسيحية فانقلبت الوحدانية الرائعة التي جاء بها مؤسسه شريكاً . . . \* « أما « أفلاطون » المسيحية القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) فقد اعتبر في كتابه « مدينة الله » \* \* « إن « أصل كلمة عبد في اللاتينية تكمن في الظروف التي بموجبها كان المنتصرون يحتفظون بأولئك الذين كان قتلهم مباحاً حسب قانون الحرب . وهذه الظروف ما كانت لتقوم الاسبب « الخطيئة » . فحتى حين نشن حرباً عادلة « فلا بد من أن يكون اعداؤنا خطاة . وكل نصر (حتى لو كسبه الاشرار) هو نتيجة القضاء الأول للاله للتكفير عن خطايا المقهور ولعقابه عليها . ولكن الله عندما خلقنا لأول مرة ، لم يكن الانسان عبداً للانسان أو للخطيئة . ولذا فان هذه العبودية عقوبة له ، اقرها القانون لحفظ النظام الطبيعي وهو يمنع خرقه . . . ولهذا فان الرسول (بولس) يحض العبيد على أن يخضعوا لاسيادهم ويخدموهم بمودة واخلاص . فاذا لم يجرهم اسيادهم فانهم يجعلون عبوديتهم حرة بطريقة ما ، بخدمتهم اسيادهم بحب مخلص بدل الخوف الماكر والرهبة . . . » ولا حاجة بنا إلى الاطالة في مقارنة هذا الكلام الذي « يفلسف » العبودية مع مواقف الاسلام منها ، الاسلام الذي لم يترك مناسبة تمر دون الحض على عتق العبيد . بل ان عتق الرقبة فرض في كل الكفارات عند تعذر الخيارات الانسانية الأخرى كاطعام المساكين أو الصيام . لقد حارب الاسلام منذ بداياته الأولى الرق . فقبل الهجرة مثلاً كان أحد العتاة في قريش « أبو الأشد بن كلدة » يتبجح في مكة ويقول انه بذل مالا كثيراً في محاربة الاسلام . فانت سورة البلد تسخر من عتوه ومن تضييع أمواله في سبل

\* قصة الحضارة . الكتاب الأول ص ٤٢٩ .

\*\* مجموعة الكتب العظيمة في العالم الغربي . مجلد ١٩ فصل ١٥ ص ٥٢١ .

الشر بدلاً من انفاقها في طريق الخير بدءاً من عتق رقيق : \*  
﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفقتين ، وهديناه  
النجدتين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك  
رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيها ذا مقربة ، أو مسكينا  
ذا متربة . . ﴾

(البلد ٨ - ١٦)

وكانت الحرف تتسع وتنوع ويبارسها الأحرار أكثر فأكثر لاسيما منها تلك التي  
تتطلب الدقة واليد الصنّاع . وقد وجد الصنّاع الاحرار دوماً في عصور العبودية ، بل  
كانوا في بعض الاحيان يشكلون أكثرية الحرفيين في بعض المجتمعات ، فكانت مثلاً  
« الكثرة الغالبة من الصنّاع ( في مصر القديمة ) حرفيين احرار . . . وكان النظام  
المألوف للصنّاع الأحرار ان تؤلف منهم فرق تتبع رئيساً منهم أو مشرفاً عليهم يؤجر  
على عملها جملة ويؤدي هو لافرادها أجورهم » \* \* . أما في المجتمعين اليوناني  
والرومي فقد كانت تقوم دراسات عن العبيد وعن أفضل الطرق لاستخدامهم  
كأدوات انتاج (وليس كإنسان) ، وكانوا يستخدمون على نطاق واسع في هذين  
المجتمعين ، ليس فقط في الانتاج الحرفي وانما أيضاً في الاعمال الهندسية والتعليم  
والمجاسبة وما شابهه \* \* \* وفي كل الحالات كانت علاقات العبودية كوشائج نظام  
تتناول الاحرار الضعفاء ، كالحرفيين وغيرهم (بل كل انسان تجاه من هو أشد منه قوة  
اجتماعية) بقيودها وسعراتها وقهرها بحيث لا يختلف الحر الضعيف عن العبد في  
أوضاعه الاجتماعية وعلاقاته بالأقوياء وسادة العبيد . وقد سبق وأشرنا إلى هذا الأمر  
أعلاه واتينا ببعض الشواهد في الكتابات البابلية . ونضيف هنا شاهداً آخر من

---

\* من تفسير الجلالين : جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي .

\* \* \* قصة الحضارة . الكتاب الأول . ص ٨٦ و ٨٧

\* \* \* انظر الاخلاقيات لارسطو . المجلد الثامن من مجموعة كتب الغرب العظيمة ص

٤١٣ . وليسياس لافلاطون المجلد السابع ص ١٦ - ١٨ . والقوانين لافلاطون المجلد السابع ص

٧٠٩ - ٧١٠ . وبلوتارك في قصة ماركوس كاتو وقصة كراسوس (الذي قضى على ثورة

سبارتكوس) . مجلد ١٤ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ و ٤٣٩ .

مصر . فقد حدث مرة « أن تأخر صرف أجور العمال زمناً طويلاً ، فحاصروا رئيسهم وانذروه بقولهم : لقد ساقنا إلى هذا المكان الجوع والعطش ، فاكتب إلى سيدنا الملك في هذا الأمر ، واكتب إلى الحاكم (حاكم المقاطعة) الذي يشرف على شؤوننا حتى يعطينا ما نقتات به » . \* ولكن الانتاج العبودي بجملة فروعه المختلفة كان بمعظمه يقوم على يد الرقيق . فكهنة مصر مثلاً في عهد رمسيس الثالث كانوا يملكون مائة وسبعة آلاف عبد يؤلفون جزءاً من ثلاثين من سكان مصر حينذاك . \* إلا أنه مما كان يفقد توازن الانتاج العبودي هو ثنائية الشكل الذي تقوم عليه العلاقة الاساسية للانتاج فيه والتعارض بين فرعي هذا الشكل . فهناك كما رأينا المنتجون العبيد والمنتجون الاحرار فكان لا بد من أن يقع التعارض بين الانتاجين المتداخلين والمختلفين في الأسلوب لهاتين الفئتين الاجتماعيتين ، بالإضافة إلى ما تسببه هذه الثنائية من تعقيد في تبادل السلع في الأسواق بسبب عدم وحدة الاساس في حساب الكلفة : ان الاقتصاد الطبيعي الذي تضعف فيه عملية التبادل لا يبرز ما ينشأ عن الثنائية المذكورة من تعارض وتعقيد بسبب ان المنتج هنا يستهلك انتاجه أو انتاج عبيده وفلاحيه . إلا أن اتساع الاختصاص في الانتاج مع ازدياد الحاجات وتنوعها ، وبالتالي اتساع عمليات التبادل واتساع الاسواق ، مع تضخم قطاعات المنتجين الاحرار مع رقي اساليب الانتاج ، كل هذا يبرز الثنائية الأنفة الذكر ويشدد من التناقضات والتعقيدات الناشئة عنها . وكان لا بد من أن ينتهي الامر في العلاقات العبودية إلى الفساد والتفسخ ، وإلى تتابع الازمات واستفحالها المستمر ، لكل الاسباب المارة أعلاه ، وهذا ما حدث في عصر الدعوة الاسلامية .

وقد توالى منذ بدء القرن الخامس الميلادي الاجتياحات الكبرى لمناطق المدينة من قبل القبائل البربرية ، في عالم العبودية الذي كانت قد ترزعت اسسه واختل توازنه :

١ - تتابعت الهجمات الجرمانية على الامبراطوريتين الروميتين الشرقية والغربية ، وكانت الامبراطورية الرومية قد انقسمت إلى امبراطوريتين عام

---

\* قصة الحضارة . الكتاب الأول ص ٨٧ .

\*\* المرجع السابق ص ١٨٢ .

٣٩٥ م . وفي عام ٤١٠ احتل أليريك الأول ملك القوط الغربيين روما ، ثم عاد الفاندال واحتلوها عام ٤٥٥ ، وكان الهون قد اجتاحوا أوروبا الغربية حول هذا التاريخ الأخير ، وانتهى الأمر بسقوط روما عام ٤٧٥ وغرقت أوروبا في ظلام القرون الوسطى .

٢ - غرقت روما الشرقية طوال القرن السادس في حروب لانهاية لها في الغرب وفي الشرق : حروب جستنيان لاعادة توحيد الامبراطورية الرومية التي لم تسفر إلا عن توحيد موقت عادت بعده وتقلصت إلى امبراطورية الشرق ، وحروب هذه الأخيرة مع الفرس التي بلغت من الحدة في الأيام المكية للدعوة الاسلامية بحيث سقطت معها بايدي الجيوش الفارسية كل من سورية ومصر وقسم من الاناضول . وقد ورد ذكر هذه الحرب في القرآن الكريم فنقرأ في سورة الروم : ﴿ . . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين . . ﴾

ويضاف إلى الحروب المستمرة النزاعات الدينية وانشقاق الكنيسة المسيحية إلى كنيستين : غربية وشرقية .

٣ - تعرضت الامبراطورية الفارسية منذ عام ٤٢٥ لهجمات الطورانيين في الشرق (الافتاليين) الذين تمكنوا في النهاية من إقامة دولة تمتد من بحر الخزر إلى نهر السند (عاصمتها جرجان) وتتقاضى الجزية من فارس . وقامت الصراعات الدينية في فارس في أواخر القرن الخامس ، حيث خرج الكاهن الزردشتي مزدك بدعوة لاصلاح الزردشتية ، مما سبب حرباً أهلية زعزعت أسس الامبراطورية وخسر الملك عرشه فيها ولم يعد اليه الا بمساعدة الفتاليين . وقامت الحروب كما ذكرنا بين الفرس والروم . ولكي يسترد امبراطور الروم هرقل سورية ومصر هاجم فارس من جهة القفقاس واحتل المدينة المقدسة الزردشتية « كلورومية » وأطفأ فيها نار المجوس . فصدقت نبوءة القرآن بنصر الروم بعد هزيمتهم المذكورة أعلاه . وقد سببت هزيمة الفرس ثورة الجند وخلع كسرى ابرويز الذي قتله ابنه في النهاية . وكسرى هذا هو الذي مزق كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فدعى الله أن يمزق ملكه .